فلسطين في التاريخ الإسلامي

منذ العصر العباسي الثاني الذي ابتدأ بعد منتصف القرن الثالث الهجري ودولة الخلافة الإسلامية في ضعف مستمر متزايد، حتى تمزقت دولة الإسلام إلى ثلاث خلافات بدلاً من خلافة واحدة فالخلافة العباسية في المشرق، والخلافة الفاطمية في مصر وأجزاء من المغرب والشام، والخلافة الأموية في الأندلس، وفي مثل تلك الأجواء حدثت الحروب الصليبية.

الخريطة السياسية للمنطقة قبيل الحروب الصليبية

قبل بدء الحروب الصليبية بحوالي أربعين عاماً نجح السلاجقة الأتراك في بسط سيطرتهم على بغداد وتولوا الحكم تحت الخلافة الإسمية للعباسيين. فقد استطاع السلاجقة بسط سيطرتهم على أجزاء واسعة من فارس وشمال العراق وأرمينيا وآسيا الصغرى حوالي ١٠٤٠م ثم سيطر السلطان السلجوقي طغرل بك على بغداد سنة ١٠٥٥م، وتوسع السلاجقة على حساب البيزنطيين في آسيا الصغرى، وفي ١٩ أغسطس ١٠٧١م وقعت معركة ملاذكرد التي قادها السلطان السلجوقي ألب أرسلان وحلت فيها أكبر كارثة بالبيزنطيين حتى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي.

وفي سنة ١٠٧١م سيطر السلاجقة على معظم فلسطين عدا أرسوف وأخرجوا النفوذ الفاطمي منها وتوسع السلاجقة على حساب الفاطميين في الشام فاستطاعوا الاستيلاء على معظمها.

وفي سنة ١٠٩٢م ٤٨٥ هـ توفي السلطان السلجوقي ملكشاه فتفككت سلطة السلاجقة، ودخلوا فيما بينهم في معارك طويلة طاحنة على السيطرة والنفوذ، وفي سنة ١٠٩٦م أصبحت سلطتهم تتكون من خمس ممالك: سلطنة فارس بزعامة بركياروق، ومملكة خراسان وما وراء النهر بزعامة سنجر ومملكة حلب بزعامة رضوان، ومملكة دمشق بزعامة دقاق، وسلطنة سلاجقة الروم بزعامة قلج

أرسلان. وكانت معظم مناطق فلسطين تتبع الحكم في دمشق. وفي ظل ضعف حاكمي الشام (رضوان ودقاق) ظهرت الكثير من البيوتات الحاكمة بحيث لا يزيد حكم كثير منها عن مدينة واحدة.

لقد بدأ الصليبيون حملتهم ١٠٩٨م - ٤٩١هـ ومناطق المسلمين في الشام والعراق وغيرها تمزقها الخلافات والصراعات الدموية، فقد دخل الأخوان رضوان ودقاق ابنا تتش في حرب بينهما سنة ٤٩٠ هـ، ووقعت معارك عديدة بين محمد بن ملكشاه وأخيه بركياروق في الصراع على السلطنة تداولا فيها الانتصارات والخطبة لهما بدار الخلافة ٤٩٢ - ٤٩٧هـ.

الحملة الصليبية الأولى ونتائجها

وفي تلك الأثناء أخذت الأنظار في أوروبا تتجه نحو الأرض المقدسة بعد أن دعا البابا أوربان الثاني (١٠٨٨ - ١٠٩٩م) في مجمع كليرمونت ٢٦ تشرين ثاني / نوفمبر ١٠٩٥م «لاسترداد» الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين، ثم عقد عدة مجمعات دعا فيها للحروب الصليبية (ليموج، انجرز، مان، تورز، بواتييه، بوردو، تولوز، نيم) خلال ١٠٩٥ - ١٠٩٦م، وقرر أن كل من يشترك في الحروب الصليبية تغفر له ذنوبه، كما قرر أن ممتلكات الصليبيين توضع تحت رعاية الكنيسة مدة غيابهم، وأن يخيط كل محارب صليباً من القماش على ردائه الخارجي.

وبدأت الحملات الصليبية بحملات العامة أو حملات الدعاة، وهي حملات تفتقر إلى القوة والنظام، وكان منها حملة بطرس الناسك وهو رجل فصيح مهلهل الثياب حافي القدمين يركب حماراً أعرج جمع حوله من فرنسا حوالي ١٥ ألفاً، وفي طريقهم أحدثوا مذبحة في مدينة مجرية لخلاف على المؤن فقتُل أربعة آلاف، وانضمت إليهم عند القسطنطينية جموع والتر المفلس، ودخلت حشودهم الشاطئ الآسيوي، وحدثت معركة مع السلاجقة انتصر فيها السلاجقة وقتلوا من الصليبيين ٢٢ ألفاً ولم يبق من الصليبيين سوى ثلاثة آلاف. أما حملتا فولكمار وأميخ فقد أقامتا مذابح لليهود في الطريق، وتشتت الحملتان في المجر!!.

ثم كان ما يعرف بالحملة الصليبية الأولى وقد شارك فيها أمراء وفرسان أوروبيون محترفون وبدأت الحملة سيطرتها على مناطق المسلمين منذ صيف ١٠٩٧م، وأسس الصليبيون إمارة الرها مارس ١٠٩٨م بزعامة بلدوين البولوني. وحاصر الصليبيون أنطاكية تسعة أشهر وظهر من شجاعة صاحب أنطاكية باغيسيان «وجودة رأيه واحتياطه مالم يشاهد من غيره فهلك أكثر الفرنج ولو بقوا على كثرتهم التي خرجوا فيها لطبقوا بلاد الإسلام»، غير أن أحد الأرمن المستحفظين على أسوار المدينة راسله الصليبيون وبذلوا له «مالاً وإقطاعاً» ففتح للصليبيين الباب من البرج الذي يحرسه فاحتل الصليبيون المدينة، وأسسوا فيها إمارتهم الثانية ٤٩١هـ -٣ يونيو ١٠٩٨م، بزعامة بوهيمند النورماني.

وفي الوقت الذي كان السلاجقة يتعرضون فيه للزحف الصليبي شمال بلاد الشام، استغل الفاطميون الفرصة فاحتلوا صور ١٠٩٧م وسيطروا على بيت المقدس في شباط / فبراير ١٠٩٨م أثناء حصار الصليبيين لأنطاكية، واستقل بطرابلس القاضي ابن عمار أحد أتباع الفاطميين، بل أرسل الفاطميون للصليبيين أثناء حصارهم لأنطاكية سفارة للتحالف معهم وعرضوا عليهم قتال السلاجقة بحيث يكون القسم الشمالي «سوريا» للصليبيين وفلسطين للفاطميين، وأرسل الصليبيون وفداً إلى مصر ليدللوا على «حسن نيّاتهم»!!، وهكذا... فأثناء انشغال السلاجقة بحرب الصليبيين كان الفاطميون منشغلين بتوسيع نفوذهم في فلسطين على حساب السلاجقة حتى إن حدودهم امتدت حتى نهر الكلب شمالاً ونهر الأردن شرقاً..!!

وظهرت الخيانات وانكشف التخاذل من إمارات المدن التي حرصت كل منها على نفوذها وكسب ود الصليبيين أثناء توسعهم ومن ذلك ما حدث من اتصال صاحب إقليم شيزر بالصليبيين حيث تعهد بعدم اعتراضهم وتقديم ما يحتاجون من غذاء ومؤن بل وأرسل لهم دليلين ليرشداهم على الطريق!!، وقدمت لهم حمص الهدايا!! وعقدت معهم مصياف اتفاقية!!.. أما طرابلس فدفعت لهم الجزية، وأعانتهم بالأدلاء، ودفعت بيروت المال، وعرضت عليهم

الدخول في الطاعة إذا نجحوا في احتلال بيت المقدس!!.

تابع ريموند دي تولوز (أمير إقليم بروفانس وتولوز بفرنسا) قيادة بقية الصليبيين إلى بيت المقدس وكان عددهم ألف فارس وخمسة آلاف من المشاة فقط!! وفي ربيع ١٠٩٩م دخلوا مناطق فلسطين فمروا بعكا التي قام حاكمها بتموين الصليبيين!! ثم قيسارية ثم أرسوف، ثم احتلوا الرملة واللد وبيت لحم، وفي ٧ حزيران / يونيو ١٠٩٩م بدأوا حصار بيت المقدس، وكان حاكمها قد نصبه الفاطميون ويدعى افتخار الدولة، وتم احتلالها في ١٥ يوليو ١٠٩٩ لسبع بقين من شعبان ٤٩٢هـ. ولبث الفرنج أسبوعاً يقتلون المسلمين... وقتلوا بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين، وعلمائهم وعبادهم. أما الدولة الفاطمية فقد واجهت الخبر ببرود، كما أن الدولة العباسية لم تحرك ساكناً!!

تولى حكم بيت المقدس القائد الصليبي جود فري بوايون، وتسمى تواضعاً بحامي بيت المقدس، واستسلمت نابلس، وتم للصليبيين احتلال الخليل.

ويقال إنه لم يبق من الصليبيين إلا ثلاثمائة فارس وألفين من المشاة ولم يستطيعوا توسيع سيطرتهم، ذلك أن كثيراً منهم عادوا إلى بلادهم بعد أن أوفوا قسمهم بالاستيلاء على بيت المقدس، وبذلك أصبحت ممالك الصليبيين كالجزر وسط محيط من الأعداء، ومع ذلك كتب لها الاستمرار مائتي سنة حتى تم اقتلاع آخرها!! بسبب الإمدادات والحملات التي كانت تأتيهم بين فترة وأخرى، وبسبب ضعف المسلمين وتشرذمهم، وعدم استغلالهم لفرصة انسياب وانتشار الصليبيين على مساحات واسعة من الأرض بأعداد قليلة ليقضوا عليهم، ولكن المسلمين تأخروا حتى قويت شوكة الصليبيين وأصبح من الصعب اقتلاعها.

وتتابع سقوط مدن فلسطين الأخرى، فقد كانت يافا قد سقطت أثناء حصار بيت المقدس على يد سفن جنوية في ١٥ يونيو ١٠٩٩م، وسيطر الصليبيون على شرق بحيرة طبرية (منطقة السواد) في مايو ١١٠٠م، واستولوا على حيفا عنوة في شوال ٤٩٤ هـ - أغسطس ١١٠٠م بمساعدة أسطول كبير من البندقية، وملكوا

أرسوف بالأمان وأخرجوا أهلها منها، وملكوا قيسارية ١٧ مايو ١١٠٩م بالسيف وقتلوا أهلها ونهبوا ما فيها وذلك في ١٧ مايو ١١٠١م(٢٣). وهكذا فرض الصليبيون هيمنتهم على فلسطين غير أن عسقلان ظلت عصية عليهم وكان المصريون (الفاطميون) يرسلون لها كل عام الذخائر والرجال والأموال، وكان الفرنج يقصدونها ويحاصرونها كل عام فلا يجدون لها سبيلاً، ولم تسقط عسقلان بأيدي الفرنج إلا في سنة ١١٥٣م –٥٤٨هـ، وكان أهلها قد ردوا الفرنج مقهورين في ذلك العام، وعندما آيس الفرنج وهموا بالرحيل أتاهم خبر أن خلافاً وقع بين أهلها فصبروا. وكان سبب الخلاف أن أهلها لما عادوا قاهرين منصورين ادعى كل طائفة أن النصرة كانت من جهتها، فعظم الخصام بينهم إلى أن قتل من إحدى الطائفتين قتيل، واشتد الخطب وتفاقم الشر، ووقعت الحرب بينهم فقتل بينهم قتلى!! فطمع الفرنج، وزحفوا إلى عسقلان وقاتلوا فلم يجدوا من يمنعهم فملكوها.

وقد كان عدد الصليبيين محدوداً غير أنهم فرضوا هيمنتهم من خلال قلاع منتشرة كجزر معزولة في العديد من مناطق الشام، بينما استمر الصراع والنزاع بين المسلمين، واستعان بعضهم بالصليبيين على خصومهم، مما أضعف الموقف الإسلامي، وجعل الصليبيين يلعبون في بعض الأحيان دور الشرطي، ويستفيدون من ذلك في زيادة نفوذهم وتقوية شوكتهم.

ومن ذلك الصراع بين طغتكين وبكتاش بن تتش على دمشق، حيث استعان بكتاش ٤٩٨هـ بالفرنج على خصمه، ولحق به «كل من يريد الفساد»، غير أن ملك الفرنج لم يعطه سوى التحريض على الإفساد، ثم استقام الأمر لطغتكين. وعندما وقعت معركة بين الفاطميين والفرنج بين عسقلان ويافا سنة ٤٩٨هـ ساعدت الفاطميين قوة من دمشق من ٣٠٠ فارس وساعدت جماعة من المسلمين بقيادة بكتاش بن تتش الفرنج. وعندما جاء جيش السلطان من العراق سنة ٥٠٩هـ إلى الشام لجهاد الصليبيين بقيادة برسق بن برسق خاف حكام دمشق وحلب على نفوذهم من أن يزول فتعاونوا بقيادة طغتكين مع فرنج أنطاكية ضد جيش السلطان. ثم ما لبث طغتكين نفسه أن قاتل فرنج بيت المقدس واستعاد رفنية

بعد أن استولى الفرنج عليها.

وبصورة عامة استمر جهاد المسلمين ضد الفرنج (الصليبيين) دون توقف، وإن كان هذا الجهاد قد افتقر إلى حسن الإعداد والتنظيم، كما تعدد القادة المسلمون الذين يأتون ويذهبون، وتعددت محاور الصراع والاشتباك مع الفرنج في بلاد الشام، وافتقر المسلمون إلى قاعدة كبيرة قوية تكون منطلقاً دائماً للجهاد، وكثيراً ما كان القتال بين مدينة أو قلعة إسلامية –تحاول الدفاع عن نفسها أو توسيع نفوذها– وبين الفرنج.

وتداول المسلمون والصليبيون النصر والهزيمة في المعارك، ولم يكن يمضي عام دون معارك وتبادلوا احتلال المدن والقلاع، ولم يكن من الصعب على المسلمين أن يدخلوا في وسط فلسطين ويخوضوا المعارك عند الرملة أو يافا أو غيرهما. غير أن الصليبيين ظلوا يحتفظون بنفوذهم وهيمنتهم في المناطق التي استولوا عليها.

وظهر عدد من المجاهدين المسلمين الذين كانت قدراتهم محدودة ولم يتمكنوا من توحيد قوى المسلمين لجهاد الفرنج، غير أنهم حافظوا على جذوة الجهاد، وألحقوا بالفرنج خسائر كبيرة وأفقدوهم الاستقرار والأمان وقتلوا أو أسروا العديد من قادتهم وزعمائهم، فمثلاً كان بين معين الدولة سقمان وشمس الدولة جكرمش حرب، ولمّا حوصرت حرّان من قبل الفرنج سنة ٤٩٧هـ تراسلا وأعلم كل منهما الآخر أنه قد بذل نفسه لله تعالى وثوابه فسارا واجتمعا بالخابور في عشرة آلاف من التركمان والترك والعرب والأكراد فالتقوا بالفرنج عند نهر البليخ، وهزم الفرنج فقتلهم المسلمون، وأسر بردويل وفدى بخمسة وثلاثين ديناراً و ١٦٠ أسيراً من المسلمين وكان عدد قتلى الفرنج يقارب «١٢» ألفاً.

عماد الدين زنكي يحمل راية الجهاد

انفتحت صفحة جديدة للجهاد ضد الصليبيين بظهور عماد الدين زنكي بن أقسنقر وبدء عهد الدولة الزنكية في الموصل وحلب، فقد تولى عماد الدين زنكي

أمر ولاية الموصل وأعمالها سنة ٥٢١هـ بعد أن ظهرت كفاءته في حكم البصرة وواسط وتولّى شحنكية العراق، وفي محرم سنة ٥٢٢هـ تمت له السيطرة على حلب. وأخذ عماد الدين يخوض المعارك تلو المعارك ويحقق الانتصارات على الصليبيين.

واستمرت جهود زنكي في توحيد قوى المسلمين في غزو الصليبيين، فملك زنكي حماة وحمص وبعلبك، وسرجي، ودارا، والمعرة، وكفر طاب، وقلعة الصور في ديار بكر، وقلاع الأكراد الحميدية، وقلعة بعرين، وشهرزور، والحديثة، وقلعة أشب وغيرها من الأكراد الهكارية.

وفي سنة ٥٣٤هـ حاول زنكي الاستيلاء على دمشق مرتين دون جدوى، فقد كانت دمشق المفتاح الحقيقي لاسترداد فلسطين من جهة الشام، غير أن القائم بأمر الحكم هناك معين الدين أنز راسل الصليبيين للتحالف ضد زنكي ووعدهم أن يحاصر بانياس ويسلمها لهم ووافقوا، ولكن زنكي ذهب إليهم قبل قدومهم لدمشق فلما سمعوا ذلك لم يخرجوا. ومع ذلك فإن معين الدين حاصر بانياس بمساعدة جماعة من الفرنج ثم استولى عليها وسلمها للفرنج!!

غير أن أشهر ما يذكر من الفتوح لزنكي هو فتحه للرها وإسقاطه للمملكة الصليبية التي قامت بها، فقد حاصرها أربعة أسابيع وفتحها عنوة في ٦ جمادى الآخرة ٥٣٩هـ، وفتح ما يتبع هذه المملكة من أعمال في منطقة الجزيرة، وفتح سروج وسائر الأماكن التي كانت للفرنج شرقي الفرات ما عدا البيرة.

استشهد عماد الدين زنكي –بعد أن حمل راية الجهاد أكثر من عشرين عاماً – في منتصف سبتمبر ١١٤٦م – ٥ ربيع الأول ٥٤١هـ غدراً على يد جماعة من مماليكه بينما كان يحاصر قلعة جعبر، وكان عمره زاد عن ستين سنة وعلى ما ذكر ابن الأثير فقد كان زنكي شديد الهيبة في عسكره ورعيته، عظيم السياسة، لا يقدر القوي على ظلم الضعيف، وكانت البلاد قبل أن يملكها خراباً من الظلم وتنقل الولاة ومجاورة الفرنج، فعمّرها وامتلأت أهلاً وسكاناً «وكان زنكي من خيار الملوك وأحسنهم سيرة وشكلاً، وكان شجاعاً مقداماً حازماً، خضعت له ملوك الأطراف،

وكان من أشد الناس غيرة على نساء الرعية، وأجود الملوك معاملة، وأرفقهم بالعامة»، واشتهر عماد الدين بعد مقتله بلقب «الشهيد».

لقد عمل عماد الدين زنكي في أجواء صعبة من نزاع بين أمراء وزعماء السلاجقة أنفسهم، وبينهم وبين الخليفة العباسي في أحيان أخرى، ومن أجواء الحكم الوراثي، ونزعة الكثيرين للسيطرة والزعامة حتى ولو على مدينة أو قلعة واحدة، كما عاش فترة كانت القوى الصليبية لا تزال تملك الكثير من القوة والحيوية. ومع ذلك فقد استطاع عماد الدين أن يضع الأسس لقاعدة انطلاق جهادية كبيرة وقوية تمتد من شمال الشام إلى شمال العراق، كما كسر شوكة الصليبيين في مواقع كثيرة، ويسر سبل الجهاد والعمل الجاد لتحرير الأرض، وقدم نموذجاً للحاكم والمجاهد تحت راية الإسلام، وقوى الأمل باسترجاع المقدسات.

بعد استشهاد زنكي، وحسب الأعراف الوراثية في ذلك الزمان، انقسمت دولته بين ابنيه: نور الدين محمود الذي تولى حلب وما يتبعها وسيف الدين غازي الذي تولى الموصل وما يتبعها.

ولد نور الدين محمود -بعد حوالي عشرين عاماً من سقوط القدس في أيدي الصليبيين- في ١٧ شوال ٥١١هـ -فبراير ١١١٨م، وكان أسمر طويل القامة، حسن الصورة، ذا لحية خفيفة، وعليه هيبة ووقار. تزوج سنة ٥٤١هـ من ابنة معين الدين أنز ورزق ببنت وولدين.

وبحكم نور الدين انفتحت صفحة جديدة رائعة من صفحات الجهاد الإسلامي في بلاد الشام، وطوال ٢٨ عاماً من حكم نور الدين كان واضحاً في ذهنه هدفه الأساسي في تحرير واسترداد بلاد المسلمين، وتوحيدها تحت راية الإسلام.

ومنذ تلك اللحظة أخذ يبذل الأسباب ويعد العدة والعتاد ويوحد جهود المسلمين ويرتقي بهم في جوانب الحياة المختلفة وذلك وفق تصور إسلامي متكامل لإعادة أمجاد المسلمين وطرد الاحتلال الصليبي من بلادهم.

وفي سبيل ذلك قام نور الدين محمود بإحياء نهضة إسلامية أكدت على تكامل الحل الإسلامي، ويقول ابن الأثير فيه «طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل

الإسلام، وفيه إلى يومنا هذا، فلم أرَ بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين» فلقد كان «ذكياً، ألمعياً، فطناً، لا تشتبه عليه الأحوال، ولا يتبهرج عليه الرجال»، ولم يتقدم لديه إلا ذوو الفضل، والقدرة على الإنجاز الأمين المسؤول للعمل، ولم ينظر في تقديمه للرجال إلى المكانة الاجتماعية أو للجنس والبلد.

كما عرف نور الدين بتقواه وورعه فقد كان حريصاً على أداء السنن وقيام الليل بالأسحار، فكان ينام بعد صلاة العشاء ثم يستيقظ في منتصف الليل فيصلي ويتبتل إلى الله بالدعاء حتى يؤذن الفجر. كما كان كثير الصيام.

وتميز بفقهه وعلمه الواسع فلقد تشبه بالعلماء واقتدى بسيرة السلف الصالح، وكان عالماً بالمذهب الحنفي، وحصل على الإجازة في رواية الأحاديث وألف كتاباً عن الجهاد، وكان ذا طبيعة جادة، كما رزقه الله قوة الشخصية فكان «مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته» ومجلسه «لا يذكر فيه إلا العلم والدين والمشورة في الجهاد» «ولم يسمع منه كلمة فحش قط في غضب ولا رضى صموتاً وقوراً».

وكان زاهداً متواضعاً فقد «كان أدنى الفقراء في زمانه أعلى نفقة منه من غير اكتناز، ولا استئثار بالدنيا»، وعندما شكت زوجته الضائقة المادية أعطاها ثلاثة دكاكين له بحمص وقال «ليس لي إلا هذا، وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين لا أخونهم فيه، ولا أخوض في نار جهنم لأجلك».

قال له الشيخ الفقيه قطب الدين النيسابوري يوماً «بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالإسلام، فإن أصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف»، فقال له نور الدين «يا قطب الدين!! ومن محمود حتى يقال له هذا؟ قبلي من حفظ البلاد والإسلام؟ ذلك الله الذي لا إله إلا هو».

وعلى اتساع نفوذه وسلطانه جاءه التشريف من الخلافة العباسية وتضمن قائمة بألقابه التي يذكر بها على منابر بغداد تقول «اللهم أصلح المولى السلطان الملك العادل العالم العامل الزاهد العابد الورع المجاهد المرابط المثاغر نور الدين وعدته، ركن الإسلام وسيفه قسيم الدولة وعمادها، اختيار الخلافة ومعزها، رضي

الإمامة وأثيرها، فخر الملة ومجدها شمس المعالي وملكها، سيد ملوك المشرق والمغرب وسلطانها، محي العدل في العالمين، منصف المظلوم من الظالمين، ناصر دولة أمير المؤمنين»!! فأوقف هذا كله واكتفى بدعاء واحد هو «اللهم وأصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي».

وقد حرص على تطبيق أحكام الإسلام على الجميع، وكان قدوة في الالتزام بها، وطبقها على مسؤولي الدولة وقادتها، كما حرص على رد الحقوق إلى أصحاب المظالم وكان يقول «حرام على كل من صحبني أن لا يرفع قصة مظلوم لا يستطيع الوصول إليَّ»، وفي توحيده لبلاد المسلمين كان يحرص على عدم إراقة دماء المسلمين ولذلك كان ذا صبر وحكمة وتأن في ذلك، لقد كان رحمه الله يحفظ الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها.

ورغم اضطراره للاصطدام بالعديد من زعماء المدن والقلاع المسلمين في سعيه لتحقيق الوحدة أو لتحالفهم مع الفرنج....، إلا أن دم المسلم كان عنده عظيماً، وكان «لا يقصد ولاية أحد من المسلمين إلا لضرورة، إما ليستعين على قتال الفرنج أو للخوف عليها منهم»، وعندما تحالف حكام دمشق مع الصليبيين سنة ٥٤٤هـ جاهد الصليبيين دون إيذاء المسلمين وضياعهم، وقال «لا حاجة لقتل المسلمين بعضهم بعضاً وأنا أرفههم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين»، لقد شاهد الدماشقة حرمته حتى تمنوه، ودعوا الله أن يكون ملكهم.

وعندما رفع عليه أحدهم قضية إلى القاضي، استدعاه القاضي فقال: السمع والطاعة «إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا»، إني جئت ها هنا امتثالاً لأمر الشرع». وفي مرة أخرى دعي للقضاء فاستجاب ولما ثبت أن الحق مع نور الدين وهب لخصمه ما ادعاه عليه.

لقد ألغى رحمه الله الضرائب التي تزيد عن الحد الشرعي رغم ما كانت تدر من دخل كبير على ميزانية الدولة ورغم ما يمكن تبرير وجودها -عند البعض- بظروف البلاد والحرب، وكان يقول «نحن نحفظ الطريق من لص وقاطع طريق... أفلا نحفظ الدين ونمنع ما يناقضه»، وكان أشهى شئ عنده كلمة حق يسمعها أو

إرشاد إلى سنة يتبعها.

وأحيا سمت احترام العلماء وتوقيرهم فرغم أن الأمراء والقادة لم يكونوا يجرؤون على الجلوس في مجلسه دون أمره وإذنه، فإنه كان إذا دخل العالم الفقيه أو الرجل الصالح قام هو إليه وأجلسه وأقبل عليه مظهراً كل احترام وتوقير، وكان يقول عن العلماء «هم جند الله وبدعائهم نُنصرَ على الأعداء، ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم فإن رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا»، وكان يسمع نصيحة العلماء ويجلها ويقول «إن البلخي إذا قال لي: محمود، قامت كل شعرة في جسدي هيبة له ويرقُّ قلبي».

عرف نور الدين بشخصيته التي تهتم بأحوال المسلمين وتحيي معاني التكافل والتعاون والتضامن بينهم وترفع عنهم معاناتهم وأحوالهم الصعبة... فلقد عمل على كفالة الأيتام وتزويج الأرامل وإغناء الفقراء وبناء المستشفيات والملاجئ ودور الأيتام والأسواق والحمامات والطرق العامة، وتوطين البدو وإقطاعهم الأراضي حتى لا يؤذوا الحجاج. لقد ارتقى بالخدمات التي تقدم للمسلمين فأحبه الشعب وأصبحت صلته بالشعب متينة قوية...، وسرت هذه النفسية البناءة المحبة للخير إلى نفوس رجاله فأصبحوا يتسابقون في خدمة الناس وبناء المدارس والمستشفيات والملاجيء ووسائل الخدمات المختلفة.

ورتب نور الدين ديوان الزكاة في عهده ونظم جبايتها وتوزيعها وفق الأسس الشرعية، وشجع التجارة بتأمين طرق المواصلات ورفع الضرائب التي تثقل حركة التجارة، وسعى في كل ما يقوي الدولة ويدعم بنيانها الاقتصادي.

كما سعى في إحياء المعاني الجهادية في النفوس وتربية الأمة على معانيها وتكريس عزة المسلمين ومنعتهم وقوتهم، وبذل الجهد في توفير العدة والعتاد واختيار القادة المناسبين، وحماية المدن وبناء الأسوار والحفاظ على أرواح المسلمين، وتميز بحزمه وقوته في ذلك وكان رده عنيفاً جداً على الأعداء إذا انتهكت حرمات المسلمين، ومن ذلك أنه لم يكد يمر على استلامه للحكم شهر واحد حتى هاجم الصليبيون الرها ظانين أن الحاكم الجديد ضعيف ولكن نور

الدين هاجم الصليبيين وقتل ثلاثة أرباع جيشهم الذي هربت فلوله بعد أن عرفت من يكون القائد الجديد، وحصل مرة أن هاجم الصليبيون نور الدين وجزءاً من جيشه على حين غفلة فأقسم نور الدين أن لا يستظل بسقف حتى ينتقم للإسلام وكان انتقامه رهيباً في معركة حارم إذ قتل منهم الآلاف.

حتى الرياضة استفاد منها في مجال الإعداد الجهادي فلقد كانت الحرب تجري في ذلك العصر على الخيول... ولبناء هذه المهارة في التحكم بالخيول وحركتها كان يلعب بمهارة كبيرة لعبة الكرة من فوق الخيول (البولو)!!

لقد حرص على تعبئة طاقات الأمة للجهاد... وهو في بذله لأسبابه لم ينس دعاء الضعفاء والعجائز والمحتاجين فكان يحسن إليهم ويذكر أنه ربما ينتصر ببركة دعائهم.

بهذا البناء المتكامل والإعداد الجاد المتزن دخل نور الدين مرحلة التغيير الجذري على الساحة السياسية ليحقق أمرين سار بهما في اتجاهين متوازيين هما:-

* تحقيق الوحدة الإسلامية وتعبئة قواها في بوتقة واحدة.

* تحطيم القوى الصليبية تدريجياً: بإضعاف هيبتها، وإنهاك قواها، والتحرير التدريجي لأرض المسلمين الواقعة تحت سيطرتها... وذلك بانتظار استكمال الوحدة الإسلامية لتحقيق نصر حاسم ونهائي على هذه القوى الصليبية.

ولقد حرص نور الدين على تحقيق الوحدة الإسلامية بقدر كبير من الصبر والحكمة والأناة وحرص شديد على عدم إراقة دماء المسلمين، وقد حرص على استمالة القوى الإسلامية المتعددة في الشمال وشمال العراق وكسب صداقتها، كما كان يكشف بطريقة عاقلة واعية حقيقة أولئك الزعماء والحكام -الذين يقفون حجر عثرة أمام الوحدة الإسلامية- أمام رعيتهم، وكان الناس يقارنون بين جهاده وبين تخاذل حكامهم، وبين إصلاحاته وبين إفساد حكامهم، وبين ولائه لله سبحانه ولرسوله وللمؤمنين وبين ولاء حكامهم لمصالحهم وشهواتهم وللصليبيين!!، فأخذ الناس يتمنون حكمه عليهم.... ولذلك فقد وجد كل ترحيب شعبي عند انضمام أي من بلاد المسلمين إليه.

ضم نور الدين حمص إليه سنة ٥٤٤هـ -١١٤٩م، غير أنه كان يتوق لضم دمشق التي كانت تقف بينه وبين الصليبيين في فلسطين، وكان الحكم في دمشق يسعى بالدرجة الأولى للحفاظ على نفسه فمرة يجاهد الفرنج، ومرة يصانعهم ويهادنهم، ومرة يتحالف معهم إذا خاف من قوة إسلامية ما. ووفق تخطيط متأنٍ يهدف إلى السيطرة على دمشق دون إراقة الدماء، وإلى كسب أهل دمشق إلى صفه، وإلى منع نظام الحكم من الاستعانة بالفرنج عليه إذا قصدهم، استطاع نور الدين أن يفتح دمشق في صفر ٥٤٩ -٢٥ إبريل ١١٥٤م، وقد جاء هذا الفتح بعد أن توفي معين الدين أنز ١١٤٩م، وبعد أن ضعف الحكم بدمشق، ووقع تحت النفوذ الصليبي الذي فرض الإتاوات على دمشق وكانت رسلهم تدخل البلد كل عام ويأخذونها منهم.

وتوالت سيطرة نور الدين على مدن وقلاع الشام حتى خضعت معظمها له، غير أنه كان يدرك أن السبيل الفعال لتحرير فلسطين واقتلاع الحكم الصليبي منها لا يكون إلا بالسيطرة على مصر ودخولها ضمن الجبهة الإسلامية المتحدة، ووضع الصليبيين بين فكي الكماشة.

وقد جاءت الفرصة لنور الدين بالسيطرة على مصر عندما استعان أحد المتنافسين على الوزارة واسمه شاور بنور الدين على غريمه ضرغام سنة ٥٥٩هـ، وعرض على نور الدين ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العساكر ويكون قائده الذي يرسله مقيماً بمصر، ويتصرف بأمر نور الدين. أرسل نورُ الدين أسدَ الدين شيركوه الذي هزم ضرغام وقتله، ولكن شاور غدر بشيركوه واستعان بالفرنج لإخراجه، فجاؤوا وحاصروا شيركوه ورفاقه في بلبيس ثلاثة أشهر حتى جاءتهم أخبار انتصارات نور الدين وضمه حارم إلى ولايته، فعرضوا الصلح على شيركوه والعودة إلى الشام فوافق ولم يكن يعلم ما فعله نور الدين بالشام.

واشتد التنافس بين نور الدين وبين الصليبيين على مصر، وخصوصاً أن الدولة الفاطمية كانت في ضعف شديد وفي طور الاحتضار، فأرسل نور الدين أسدَ الدين شيركوه إلى مصر في ألفي فارس في حملة ثانية في ربيع الآخر ٥٦٢هـ، واستطاع هزيمة الفرنج وجيش مصر بالصعيد، وملك الإسكندرية بمساعدة أهلها

وذهب للصعيد فملكه، غير أنه اضطر للعودة إلى دمشق في ذي القعدة بعد أن اشترط على الفرنج ألا يأخذوا ولو قرية واحدة من مصر فوافقوا.

وتمت السيطرة لنور الدين على مصر في الحملة الثالثة التي قادها أيضاً أسد الدين شيركوه في ربيع الأول ٥٦٤هـ، ففي ذلك الوقت كان الفرنج بسبب تحالف (شاور) معهم قد تمكنوا من البلاد المصرية وأصبح لهم نفوذ كبير، وتسلموا أبواب القاهرة وجعلوا لهم فيها جماعة من شجعانهم وأعيان فرسانهم «وحكموا على المسلمين حكماً جائراً وركبوهم بالأذى العظيم» وطمع الفرنج بملك مصر فجاءت حملة بقيادة ملك بيت المقدس احتلت بلبيس عنوة فقتلت وأسرت ثم حاصرت القاهرة، وأرسل الخليفة العاضد إلى نور الدين يستغيثه وأرسل في الكتب شعور النساء وقال هذه شعور (جمع شَعْر) نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج. فأرسل نور الدين حملته الثالثة فلما قارب أسد الدين مصر خرج الفرنج خائبين، وانتهت الحملة بسيطرة أسد الدين على مصر وقتل الوزير شاور، وتولى أسد الدين الوزارة مكانه في يناير ١١٦٩م في ١٧ ربيع الآخر ٥٦٤هـ، غير أن أسد الدين توفي بعد شهرين في ٢٢ جمادى الآخرة فولي صلاح الدين يوسف الأيوبي الوزارة مكانه.

وبأمر من نور الدين أسقط صلاح الدين الخلافة الفاطمية، وتمت الخطبة للخليفة العباسي المستضيء في ثاني جمعة من محرم ٥٦٧ هـ -١٠ سبتمبر ١١٧١م، ومات الخليفة الفاطمي العاضد في ١٠ محرم دون أن يعلم بذلك، وهكذا، ضمت مصر اسمياً للخلافة العباسية وأصبحت تحت القيادة الفعلية لنور الدين.

وفي ٥٦٦هـ -١١٧٠م ضم نور الدين الموصل والمناطق التي تتبعها إلى حكمه، كما ضم نور الدين اليمن إلى حكمه سنة ٥٦٩هـ -١١٧٣ عندما أذن لصلاح الدين بفتحها فأرسل إليها أخاه توران شاه بن أيوب حيث تمت له السيطرة عليها، وبذلك امتدت الجبهة الإسلامية المتحدة من العراق إلى الشام فمصر واليمن مما أنذر بقرب القضاء على الصليبيين.

خلال فترة حكمه التي امتدت من ١١٤٦-١١٧٤م لم تتوقف المعارك وحروب

الجهاد بين نور الدين والصليبيين، وفي الوقت الذي كان يدعم فيه حكمه ويوحد جهود المسلمين كان يقوم بالاستيلاء التدريجي على الممالك الصليبية ويضعف قوتها يوماً بعد يوم وهو يعد للمعركة الفاصلة معهم، وخلال تلك الفترة استطاع نور الدين في جهاده الإسلامي استرجاع وتحرير حوالي ٥٠ مدينة وقلعة مما كان تحت سيطرة الصليبيين.

فمنذ بداية حكمه أحكم السيطرة على منطقة الرها وصفّى الأملاك التي كانت تتبعها (تل باشر، سميساط، قلعة الروم، دلوك، الراوندان، قورس، مرعش، إعزاز، عينتاب، البيرة...) وذلك خلال الفترة بين ١١٤٦ - ١١٥١م.

كما استعاد وحرر جميع الأراضي التي كانت تتبع إمارة أنطاكية شرقي نهر العاصي (١١٤٧-١١٤٩م) وقتل في أحد معاركها (أنب ٢٩/يوليو/١١٤٩) أمير أنطاكية ريموند، وزعيم الباطنية المتعامل معهم ضد المسلمين علي بن وفا. وقام بدور أساسي في تحطيم الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧-١١٤٨) التي شارك فيها ملك فرنسا لويس السابع وإمبراطور ألمانيا كونراد الثالث والتي تعتبر نقطة تحول خطيرة في تاريخ الحروب الصليبية حيث كسرت هيبة الصليبيين ورفعت الروح المعنوية لدى المسلمين.

واستمرت الحروب سجالاً، ووقعت العديد من المعارك الهامة، أدت إلى إضعاف النفوذ الصليبي وضم مناطق جديدة لنور الدين على حساب الصليبيين.. حتى أحكم نور الدين إحاطة مملكة بيت المقدس الصليبية.

صلاح الدين الأيوبي يكمل مسيرة نور الدين

وفي عام ١١٧٣م -٥٦٩ هـ كان نور الدين قد أعد عدته للهجوم النهائي على بيت المقدس وتحرير أرض الإسراء من النفوذ الصليبي حتى إنه قد جهز منبراً جديداً رائعاً للمسجد الأقصى يوضع فيه بعد الانتصار على الصليبيين بإذن الله، وراسل في ذلك عامله على مصر صلاح الدين إلا أن المنيَّة عاجلته، فتوفي رحمه الله في ١٥/مايو/١١٧٤م الموافق ١١ من شوال ٥٧٠هـ، وهكذا انطوت صفحة رائعة

من صفحات الجهاد أيام الحروب الصليبية إلا أن الصفحة التي تلتها كانت مشرقة ومؤثرة في مسار التاريخ تلك هي صفحة صلاح الدين الأيوبي الذي رفع الراية –من بعد نور الدين محمود– صلاح الدين الأيوبي وقد سار على خطى سلفه نور الدين، فقد ترسم المنهج الإسلامي والحل الإسلامي في تحطيم القوى الصليبية وتحرير الأرض المقدسة.

جاء صلاح الدين وقد وجد أن نور الدين قد هيأ الظروف المناسبة لاسترداد الأرض المقدسة فاستغلها أحسن استغلال وقطف ثمارها اليانعة بعد سنوات من حكمه.

ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب ٥٣٢هـ – ١١٣٧م بقلعة تكريت وكان أبوه والياً عليها، دخل هو وأبوه وعمه في خدمة نور الدين محمود، وشارك عمه أسد الدين شيركوه في حملاته الثلاث على مصر، وولي الوزارة في مصر وعمره ٣٢ سنة.

يوصف صلاح الدين بأنه كان حسن العقيدة، كثير الذكر، شديد المواظبة على صلاة الجماعة، ويواظب على السنة والنوافل، ويقوم الليل. وكان يحب سماع القرآن وينتقي إمامه، وكان رقيق القلب خاشع الدمعة إذا سمع القرآن دمعت عيناه، شديد الرغبة في سماع الحديث، كثير التعظيم لشعائر الله. وكان حسن الظن بالله ،كثير الاعتماد عليه عظيم الإنابة إليه.

وكان صلاح الدين عادلاً رؤوفاً رحيماً ناصراً للضعيف على القوي، وكان كريماً، وكان حسن العشرة، لطيف الأخلاق، طاهر المجلس لا يذكر أحد بين يديه إلابخير، طاهر السمع، طاهر اللسان، طاهر القلم فما كتب إيذاء لمسلم قط.

وكان شجاعاً شديد البأس والمواظبة على الجهاد عالي الهمة، قال يوماً وهو قرب عكا «في نفسي أنه متى ما يسر الله تعالى فتح بقية السواحل قسمت البلاد، وأوصيت وودعت، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت».

ومات صلاح الدين ولم يكن لديه من الأموال ما تجب فيه الزكاة، واستنفدت صدقة النفل جميع ما ملكه، ولم يخلف في خزائنه من الفضة والذهب إلا ٤٧

درهماً ناصرية، وديناراً واحداً ذهباً، ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا مزرعة، عزم على الحج في السنة التي توفي فيها ولكنه تعوق بسبب ضيق ذات اليد وضيق الوقت.

لما مات نور الدين بويع لابنه من بعده بالملك وهو الصالح إسماعيل، وكان صغيراً في الحادية عشرة من عمره، وجُعل أتابكه شمس الدين بن المقدم، فاختلف الأمراء وحادت الآراء وظهرت الشرور وكثرت الخمور، وانتشرت الفواحش، وطمعت الأعداء من كل جانب في المسلمين، وعندما هاجم الفرنج المسلمين واجههم ابن المقدم عند بانياس لكنه ضعف عن مقاومتهم، فبذل لهم أموالاً جزيلة وهادنهم، كما خرجت أرض الجزيرة من ملك الصالح إسماعيل، كما استبعد الأمراء المتحكمون في الصالح بني الداية وسجنوهم وهم من أقرب الأمراء المقربين إلى نور الدين (شمس الدين بن الداية ومجد الدين بن الداية رضيع نور الدين) وكان كل ما سبق سبباً في غضب صلاح الدين على الأمراء المتحكمين في الملك الصالح، بل واعتبر نفسه أحق الناس بالإشراف على تربية وخدمة الملك الصالح.

وهكذا فتحت أنظمة الحكم الوراثي، وانعدام المؤسسات «الدستورية» الشورية، والتنازع على السلطة وحب الرئاسة...، فتحت المجال أمام مرحلة جديدة من الصراع والخلاف بين المسلمين أخرت المعركة الفاصلة التي كان يعد لها نور الدين، واضطرت صلاح الدين أن يخوض معركة الوحدة من جديد ولم يتم له ذلك إلا بعد أكثر من ١٢ سنة.

ففي ربيع الأول ٥٧٠ هـ –نوفمبر ١١٧٤م ضم صلاح الدين دمشق سلماً، ثم ضم حمص دون قلعتها في ١٠ ديسمبر ١١٧٤، ثم ملك حماة وقلعتها ٢٨ ديسمبر ١١٧٤، ثم عاد فسيطر على قلعة حمص، ثم استولى على بعلبك في رمضان من نفس العام فصار أكثر الشام بيده، وكان صلاح الدين طوال ذلك الوقت محافظاً على ولائه الظاهر للصالح بن نور الدين والدعوة له في المساجد وسك العملة باسمه، ولكن بعد أن وقعت معركة بين صلاح الدين من جهة وبين جند حلب والموصل

الزنكيين من جهة أخرى وانتصر فيها صلاح الدين، قطع حينئذ صلاح الدين الخطبة وسك العملة للملك الصالح، وتسمَّى هو بملك مصر والشام وأقره الخليفة على ذلك، ثم استولى صلاح الدين في نفس العام (٥٧٠هـ) على قلعة بعرين.

وفي السنة التالية ٥٧٠هـ استولى صلاح الدين على بزاعة ومنبج وإعزاز، وفي ٥٧٧هـ توفي الملك الصالح إسماعيل في حلب ولم يكمل العشرين عاماً، وفي ٥٧٨هـ عبر صلاح الدين الفرات وملك منطقة الجزيرة (الرها - حران - الرقة...) وملك سنجار، وفي ٥٧٩هـ ملك صلاح الدين آمد وتل خالد وعينتاب، وملك حلب في صفر من نفس العام حيث نزل عنها عماد الدين بن مودود بن زنكي مقابل سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج، وبملك صلاح الدين حلب -بعد حصارها مرات عديدة استقر ملك صلاح الدين وكان مزلزلاً فثبت قدمه بتسلمها، كما فتح صلاح الدين قلعة حارم، وفي سنة ٥٨١هـ ملك صلاح الدين ميافارقين، واستلم شهرزور وولاية القرابلي وجميع ما وراء نهر الزاب، وأخيراً دخلت الموصل وما يتبعها في حكم صلاح الدين في ٥٨٢هـ - ١١٨٦م.

ولم تخل هذه المرحلة ٥٦٩ - ٥٨٢هـ، ١١٧٤ - ١١٨٦م من معارك عنيفة مع الصليبيين أسهمت في المحافظة على هيبة المسلمين، والتعرف على إمكانات العدو ونقاط ضعفه، واستدراك جوانب النقص عند المسلمين، وعدم إعطاء العدو فرصة للتقوِّي والتمدد والانتشار، إلا أن صلاح الدين لم يدخل في معركة فاصلة مع الصليبيين.

ونمر هنا على أهم الوقائع مع الصليبيين في تلك الفترة، ففي سنة ٥٧٠هـ هزم المسلمون الأسطول الصليبي القادم من صقلية والذي هاجم الإسكندرية بخمسين ألف رجل هزيمة كبيرة، وفي ٥٧٣هـ هاجم صلاح الدين الفرنج من جهة مصر حتى وصل عسقلان وفتحها وأسر وقتل وأحرق، ثم انساح جند صلاح الدين لما رأوا أن الفرنج لم يظهر لهم عسكر وسار صلاح الدين للرملة وهناك فاجأهم الفرنج وهزموهم ورجع صلاح الدين في نفر يسير ومشقّة شديدة، وكان درساً

قاسياً له، وفي نفس العام حاصر الفرنج حماة وحارم وفشلوا، وهزم الفرنج في العام التالي عند حماه، وفي ٥٧٥هـ أغار صلاح الدين على مناطق سيطرة الفرنج وخرب الحصن الذي أقاموه بمخاضة الأحزان قرب بانياس، ووقعت معركة شديدة انتصر فيها المسلمون ونجا ملك الفرنج وأسر عدد من قادتهم: ابن بيرزان صاحب الرملة ونابلس وهو أعظم الفرنج محلاً عند الملك، وأسر أخوه صاحب جبيل، كما أُسر صاحب طبرية ومقدم الداوية وصاحب جنين.

وفي ٥٧٨هـ قام صلاح الدين بغارات على أطراف مناطق سيطرة الفرنج مُركِّزاً على الشوبك والكرك، وفتح المسلمون الشقيف من أعمال طبرية على يد فرخشاه (والي دمشق)، واقتحم فرخشاه بيسان وغنم ما فيها، وسارت العرب فأغارت على جنين واللجون حتى قاربوا عكا.

وفي نفس العام هزم أسطول صلاح الدين الأسطول الذي سيره أرناط (رونالد دي شاتيون) حاكم الكرك في البحر الأحمر للتخريب في سواحل المسلمين ومهاجمة مكة والمدينة، وأرسل بعض أسرى الفرنج إلى منى لينحروا عقوبة لمن رام إخافة حرم الله.

وفي ٥٧٩هـ عبر صلاح الدين نهر الأردن في ١٩ جمادى الآخرة فقصد بيسان وأحرق قواعد الصليبيين وخربها «وأغار المسلمون على تلك الأعمال يميناً وشمالاً ووصلوا فيها إلى مالم يكونوا يطمعون في الوصول إليه والإقدام عليه».

كما غزا صلاح الدين الكرك، وعاد فحاصرها في السنة التالية دون جدوى ثم سار (٥٨٠هـ) إلى نابلس وحارب الحاميات الصليبية في طريقه فلما وصل نابلس حارب الصليبيين فيها ودمر قواعدهم وقتل منهم وسبى وأسر، وسار إلى سبسطية فاستنقذ جماعة من أسرى المسلمين، ووصل إلى جنين فغنم منها ودمر قواعد الفرنج فيها وعاد إلى دمشق وهو يبث السرايا عن يمينه وشماله يغنمون ويدمرون أملاك الفرنج.

وفي سنة ٥٨٢هـ مات ملك الفرنج في بيت المقدس وتولى مكانه طفل صغير وحدث خلاف وطمع في السلطة بين الفرنج جعل صاحب طرابلس يراسل صلاح

الدين ويتحالف معه ضد أقرانه من الفرنج، وفي السنة نفسها غدر صاحب الكرك أرناط بقافلة عظيمة للمسلمين فأخذها عن آخرها وغنمها، ولم يستجب لطلب صلاح الدين ووعيده بإطلاقها، فأقسم صلاح الدين ليقتلنه إن ظفر به.

وهكذا دخلت سنة ٥٨٣هـ وقد نضجت ظروف الإعداد للمعركة الفاصلة من توحيد لقوى المسلمين، ومن كسر لهيبة الصليبيين وخبرة أوسع في فن التعامل معهم، وبهذا دخل صلاح الدين معركة حطين.

جهز صلاح الدين جيشه للمعركة الفاصلة وكانوا ١٢ ألف مقاتل نظامي سوى المتطوعة وجهز الفرنج أنفسهم وتصالحوا وتجمعت ملوكهم وجيوشهم، وكونوا جيشاً من حوالي ٦٣ ألف مقاتل.

اجتاز صلاح الدين نهر الأردن، وفتح طبرية بدون قلعتها، وبدأت المناوشات يوم الجمعة إلا أن المعركة احتدمت يوم السبت ٢٤ ربيع الآخر ٥٨٣هـ - ٤ يوليو ١١٨٧م، وعانى الفرنج من الحر والعطش، وحصرهم المسلمون وأحرقوا الحشائش الجافة من حولهم ومن تحتهم فاجتمع عليهم حر الشمس وحر العطش وحر النار وحر السلاح وحر رشق النبال، ثم أمر صلاح الدين بالتكبير وبالحملة الصادقة، فمنح الله المسلمين أكتاف الفرنج فقتلوا منهم ثلاثين ألفاً وأسروا ثلاثين ألفاً، وكان فيمن أسر جميع ملوكهم سوى أمير طرابلس، ويقول بعض الرواة «لم يسمع بمثل هذا اليوم في عز الإسلام وأهله، ودفع الباطل وأهله، حتى ذكر أن بعض الفلاحين رآه بعضهم يقود نيفاً وثلاثين أسيراً من الفرنج، قد ربطهم بطنب خيمة، وباع بعضهم أسيراً بنعل ليلبسها في رجله، وجرت أمور لم يسمع بمثلها إلا في زمن الصحابة والتابعين».

ووقع في الأسر الملك جاي ملك بيت المقدس وأخوه، وأرناط حاكم الكرك الذي قتله صلاح الدين بيده براً بيمينه لغدره وإيذائه المسلمين، وأسروا صاحب جبيل وابن هنفرى، ومقدم الداوية، وجماعة من الداوية وجماعة من الاسبتارية وقد أعدم المسلمون الداوية والاسبتارية لشدة نكايتهم في المسلمين.

هذه هي وقعة حطين، وهي إحدى المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي وتاريخ فلسطين، بات المسلمون ليلتها يكثرون من التكبير والتهليل، وانتهت بسجود صلاح الدين لله شكراً مع سقوط خيمة ملك الفرنج وأسره.

وبعد هذه المعركة فتحت الطريق أمام المسلمين لتحرير معظم أرجاء فلسطين فخلال أيام قليلة تم فتح طبرية ثم عكا (١٠ يوليو)، ثم الناصرة وصفورية، ثم قيسارية وحيفا وأرسوف، ثم نابلس، ثم الفولة ودبورية وجنين وزعين والطور واللجون وبيسان وجميع ما يتبع طبرية وعكا، وتم فتح يافا. ثم اتجه المسلمون شمالاً ففتحوا حصن تبنين، ثم صيدا (٢٩ يوليو)، ثم بيروت (٦ أغسطس)، وجبيل. ثم اتجهوا جنوباً لاستكمال فتوح فلسطين ففتحوا الرملة ويبنه وبيت لحم والخليل، ثم عسقلان (٤ سبتمبر)، وغزة والداروم، وأقام صلاح الدين بعسقلان حتى تسلم حصون الداوية في غزة والنطرون وبيت جبريل... وغيرها، وقد تمَّ ذلك كله لصلاح الدين في شهرين تقريباً وبعضها كان يحتاج إلى سنين من الحصار لاقتحامه وكان جملة ما فتح خمسين بلداً كباراً كل بلد له مقاتلة وقلعة ومنعة.

تحرير بيت المقدس

وتطلعت الأنظار إلى القدس فأعد صلاح الدين عدته وبدأ حصارها في منتصف رجب ٥٨٣هـ -٢٠ سبتمبر ١١٨٧م، وكان داخل القدس حوالي ستين ألف مقاتل صليبي كلهم يرى الموت أهون عليه من تسليمها، وخلال أيام حصارها جرت صدامات عديدة وحاول المسلمون اقتحامها واقتتلوا أشد قتال رآه الناس، وكل واحد من الفريقين يرى ذلك ديناً وحتماً واجباً فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني.

وطلب الفرنج الأمان مقابل تسليم المدينة وهددوا إن لم يعطوه أن يقتلوا أسرى المسلمين وهم ألوف، ثم يقومون بقتل نسائهم وذراريهم من النصارى ويحرقون ويعطبون أموالهم، ويقتلون حيواناتهم، ويخربون الصخرة والأقصى، ثم

يخرجون ليقاتلوا حتى النهاية قتال المستميت. وشاور صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على الإشارة بالأمان، فأمنهم صلاح الدين. وتم للمسلمين فتح القدس في ٢٧ رجب ٥٨٣هـ -٢ أكتوبر ١١٨٧. وظهر من تسامح ورحمة صلاح الدين الكثير مما اعترف به الصليبيون أنفسهم.

وهكذا عادت بيت المقدس لتحكم براية الإسلام بعد ٩١ سنة هجرية (٨٨سنة ميلادية)، وأعيد للمسجد الأقصى بهاؤه ونضارته، وعاد صوت الآذان يصدح في جنباته، وتم إحضار المنبر الذي أعده نور الدين للمسجد الأقصى قبل فتحها بعشرين سنة.

ومن المهم الإشارة إلى أن صلاح الدين تابع فتح المدن والقلاع الصليبية الأخرى، ففتح سنة ٥٨٤هـ جبلة واللاذقية وقلعة صهيون، وفتح حصن بكاس والشغر وسرمينية وبرزية ودرب ساك وبغراس، كما فتح الكرك وما يجاورها كالشوبك بعد طول حصار بالأمان، وفتح صلاح الدين صفد بالأمان بعد حصار وخرج الفرنج إلى صور، كما فتح كوكب، وفي ربيع الأول ٥٨٥هـ فتح صلاح الدين شقيف أرنوم وهي من أمنع الحصون.

متابعة الجهاد ضد الصليبيين:

تجمع الصليبيون الذين سقطت مدنهم وقلاعهم في صور، وكان صلاح الدين قد تسامح وتساهل معهم في الذهاب إليها، وأخذ الصليبيون يرسلون الاستغاثات وتأتيهم الإمدادات حتى قويت شوكتهم، ثم إن صلاح الدين أطلق سراح الملك جاي سنة ٥٨٤هـ على أن يعود لفرنسا فذهب إلى صور وتولى قيادة الصليبيين من هناك بمساعدة أسطول من «بيزا» الإيطالية.... «وكان ذلك كله بتفريط صلاح الدين في إطلاق كل من حصره حتى عض بنانه ندماً وأسفاً حيث لم ينفعه ذلك» على حد تعبير ابن الأثير.

هاجم الصليبيون من صور مدينة عكا ٥٨٥هـ -١١٨٩م وانتظروا هناك حتى جاءتهم إمدادات الحملة الصليبية الثالثة التي دعا إليها البابا أوربان الثاني

«لاستعادة» بيت المقدس يقودها ثلاثة من ملوك أوروبا، امبراطور ألمانيا فردريك بربروسا الذي مات وهلك أكثر جيشه في الطريق، وريتشارد قلب الأسد ملك انكلترا الذي جاء بحراً «فعظم به شرّ الفرنج واشتدت نكايتهم في المسلمين، وكان رجل زمانه شجاعة ومكراً وجلداً وصبراً، وبلي المسلمون منه بالداهية التي لا مثل لها»، وملك فرنسا فيليب أغسطس، وحاصرت جميع الجيوش عكا (ربيع الثاني - جمادى الأولى ٥٨٧هـ - يونيو ١١٩١) وسقطت بأيدي الفرنج في ١٧ جمادى الأولى ٥٨٧هـ -١٢ يوليو ١١٩١م. وبهذا عاد الصليبيون ليكون لهم موطئ قدم جديد في فلسطين. وتداول المسلمون والفرنج الصراع ونال كل طرف من الآخر، واستطاع الفرنج التمدد على الساحل إلى الجنوب فاحتلوا حيفا ويافا.

ومن المهم الإشارة إلى أن الصراع كان دموياً مريراً فقد أشار ابن كثير إلى أن صلاح الدين أقام على عكا صابراً مصابراً مرابطاً سبعة وثلاثين شهراً وأن جملة من قتل من الفرنج كان خمسين ألفاً، وانتهت الحملة الصليبية الثالثة بعقد صلح الرملة بين ريتشارد قلب الأسد وصلاح الدين الأيوبي في ٢١ شعبان ٥٨٨هـ - اسبتمبر ١١٩٢، وهو عبارة عن هدنة مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر، سيطر الفرنج بمقتضاها على الساحل من يافا إلى عكا، وسمح لهم بزيارة القدس وحرية التجارة وتنقل القوافل بين الطرفين، على أنه من المهم الإشارة هنا إلى بعض النقاط المتعلقة بهذا الصلح الذي يحاول الكثير من المهزومين بيننا اليوم الاستناد عليه للتدليل على تفريطهم بحقوق الإسلام والمسلمين والتحول إلى موالاة اليهود:

١- لم يكن صلاح الدين يميل إلى عقد الصلح وعندما أحضر أمراءه المستشارين كان رأيه عدم قبول الهدنة، وكتب العماد الأصفهاني بأسلوبه رأي صلاح الدين «نحن بحمد الله في قوة، وفي ترقب نصرة مرجوة، وقد ألفنا الجهاد، وألفنا به المراد، والفطام عن المألوف صعب، وما لنا شغل ولا مغزى إلا الغزو، رأيي أن أخلفّ رأي الهدنة ورائي، وأقدم بتقديم الجهاد اعتزازي وإليه اعتزائي، ولي بتأييد الله من الأمر أجزمه وأحزمه».

ولكن مستشاريه أجمعوا على قبول الصلح بحجة خراب البلاد، وتعب الأجناد والرعية، وقلة الأقوات، ولأن الفرنج إذا لم تحدث الهدنة أصروا على البقاء والقتال، أما إن حدثت فسيعود للبلاد سكانها وعمارها، وتستريح الأجناد وتتقوى وتستعد للحرب، وكان رأيهم أن الفرنجة لا يفون بعهودهم ولذلك نصحوه بعقد الهدنة حتى يتفرق الفرنج وينحلوا، وما زالوا به حتى رضي.

٢- إن هذا الصلح هدنة مؤقتة قصيرة الأجل وليس معاهدة سلام دائمة وقد عقد مثلها قبلها وبعدها العديد وهي جائزة في الشرع حسب تقدير المصلحة التي يقررها إمام المسلمين، وقد استمرت من بعدها الصراعات والمعارك.

٣- لم يتم في هذه الهدنة أي اعتراف للفرنج بأي حق لهم على أرض فلسطين، وإنما تقررت الهدنة بعدم القتال على ما انتزعوه من أرض إلى أن تنتهي الهدنة.

وشتان ما بين هذه الهدنة التي عقد المسلمون منها العشرات وبين معاهدة السلام مع الكيان الصهيوني التي تجري في عصرنا.

وعلى كل حال فإن الأمر لم يطل بصلاح الدين فتوفي رحمه الله في ٢٧ صفر ٥٨٩هـ ٤مارس ١١٩٣، أي بعد ستة أشهر فقط من توقيع صلح الرملة.

الأيوبيون والصراع مع الصليبيين:

دب النزاع والشقاق بين خلفاء صلاح الدين، ودخلوا بعد سنوات من وفاته في صراعات دموية أضعفتهم، وقوت شوكة المملكة الصليبية في عكا التي استمرت وتمددت في بعض الأحيان على حسابهم. لقد كان حب الدنيا وحب السلطان ولو على حساب المبادىء والمقدسات أحد المظاهر التي حكمت عدداً من سلاطين الدولة الأيوبية، فتحالف بعضهم مع الصليبيين ضد بعض وعرضوا عليهم بيت المقدس أكثر من مرة مقابل أن ينتصر سلطان الشام على سلطان مصر أو العكس!! وقد سعد الصليبيون بهذا الدور الذي لعبوه، ولكنهم ظلوا على طمعهم في الجميع، غير أن ربيع الصليبيين لم يدم طويلاً.

انتهت الحملة الصليبية الرابعة التي أرسلها الغرب ٦٠١هـ-١٢٠٤م في القسطنطينية - ولم تصل إلى الشام أو مصر، أما الحملة الخامسة فقد

انطلقت من عكا نفسها بقيادة ملكها يوحنا بريين إلى دمياط بمصر ٦١٥-٦١٨هـ - ١٢١٨-١٢٢١م. وعندما شعر السلطان الأيوبي الكامل محمد بن محمد بن أيوب بخطورة الوضع عرض على الفرنج الصلح مقابل تسليمهم القدس ومعظم فتوح صلاح الدين، فرفضوا وطالبوا بجنوب شرق الأردن أيضاً (الكرك والشوبك) وقام الملك المعظم عيسى بن أحمد بن أيوب صاحب دمشق بتدمير أسوار القدس وتخريبها حتى لا يستفيد منها الفرنج إذا احتلوها ٦١٦هـ -١٢١٩م لكن الأيوبيين حشدوا قواهم في النهاية واستطاعوا هزيمة الصليبيين الذين عادوا خائبين إلى عكا بعد أن فاتتهم فرصة عظيمة.

ثم إن الخلاف الناشب بين الكامل محمد والمعظم عيسى أدى إلى استنجاد الكامل محمد بفردريك الثاني امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة والذي أصبح وصياً على عرش مملكة عكا الصليبية، ووعده بتسليمه القدس إن هو ساعده على أخيه المعظم عيسى، وجاء فريدريك الثاني يقود الحملة الصليبية السادسة ووصل إلى عكا سنة ٦٢٥هـ -١٢٢٨م، ورغم أن المعظم عيسى توفي مما مكن أخويه الكامل والأشرف من اقتسام أملاكه مع إعطاء ابنه الناصر داود الكرك والبلقاء والأغوار والسلط والشوبك، ولم يعد الكامل بحاجة إلى فردريك الثاني، إلا أن الكامل فرط في القدس «وفاء» بعهده لفردريك!! الذي لم يكن لديه من القوة ما يكفي لإجبار المسلمين على التنازل عن القدس بل إن فردريك اضطر للبكاء واستعطاف الكامل في مراحل المفاوضات ليتسلم القدس!! ومما قاله للكامل «... أنا مملوكك وعتيقك وليس لي عما تأمره خروج.... فإن رأى السلطان أن ينعم علي بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه ويرتفع رأسي بين ملوك البحر»!! واستجاب له الكامل وعقد معه صلح يافا ٦٢٦هـ - ١٨فبراير ١٢٢٩م لمدة عشر سنوات وبمقتضاه تقرر أن يأخذ الفرنجة بيت المقدس وبيت لحم وتبنين وهونين وصيدا مع شريط من الأرض من القدس يخترق اللد وينتهي عند يافا فضلاً عن الناصرة وغرب الجليل، على أن يكون الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى بأيدي المسلمين.

وهكذا استولى الفرنج على بيت المقدس الأمر الذي أثار غضب المسلمين «فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل وأقيمت المآتم وعظم على أهل الإسلام هذا البلاء، وقال الوعاظ والعلماء: يا خجلة ملوك المسلمين لمثل هذه الحادثة، واشتد الإنكار على الملك الكامل وحقد أهل دمشق عليه ومن معه، وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار»، وقال ابن كثير «فعظم ذلك على المسلمين جداً، وحصل وهن شديد، وإرجاف عظيم»(١٣١).

واستمر الصراع بين أبناء البيت الأيوبي، غير أن الناصر داود صاحب الأردن انتهز فرصة انتهاء مدة صلح يافا وتحصين الفرنج بيت المقدس بخلاف الشروط فاستولى على القدس وطرد منها الفرنج ٦ جمادى الأولى ٦٣٧هـ - ٧ ديسمبر ١٢٣٩ ولكن الصالح إسماعيل صاحب دمشق سلمها لهم ٦٣٨هـ -١٢٤٠م!! بعد أن طلب مساعدتهم له ضد صاحب مصر الصالح نجم الدين أيوب، هذا فضلاً عن تسليمهم عسقلان وقلعة الشقيف ونهر الموجب وأعمالها وقلعة صفد وأعمالها ومناصفة صيدا وطبرية وأعمالهما وجبل عامل وسائر بلاد الساحل... وقد أثار هذا التصرف سخط المسلمين الذين «أكثروا من التشنيع على الملك الصالح إسماعيل» وهكذا عادت القدس مرة أخرى للفرنج.

وعندما حشد الصالح إسماعيل قواته لينضم إلى حلفائه الفرنج عند غزة لقتال الصالح أيوب رفض جند الشام محالفة الفرنج ضد إخوانهم فانحازوا إلى جند مصر وهزموا الفرنج هزيمة كبيرة، ولكن الصالح أيوب صالحهم ٦٣٨هـ -١٢٤٠م واستقرت سيطرتهم على بيت المقدس وما أعطاهم إياه الصالح إسماعيل.

ومرة أخرى دخل أبناء البيت الأيوبي في الصراع وظلت القدس والأرض المقدسة ورقة يلعبون بها في تهافتهم على السلطة والنفوذ. فقد عرض الصالح إسماعيل مرة أخرى على الفرنج في عكا التحالف مقابل أن يسيطروا على القدس سيطرة تامة بما في ذلك الصخرة والمسجد الأقصى، وانضم إليه في ذلك الناصر داود، وفي الوقت نفسه عرض الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر على الصليبيين أنفسهم نفس العرض مقابل التحالف معهم.

واختار الفرنج التحالف مع الصالح إسماعيل الذي شرع في غزو مصر بمساعدة حليفه الناصر داود والمنصور إبراهيم ملك حمص إلى جانب الفرنج، واستعان الصالح نجم الدين أيوب بالخوارزمية الذين جاءوا لمساعدته في قوة من عشرة آلاف مقاتل في طريقها إليه بالاستيلاء على طبرية ونابلس، اقتحمت بيت المقدس في ١٧ يوليو واستعادت بيت المقدس بشكل كامل إلى حظيرة الإسلام ٦٤٢هـ - ٢٣ أغسطس ١٢٤٤م. وبذلك عادت بيت المقدس نهائياً إلى أيدي المسلمين، وظلت تحتفظ بهويتها الإسلامية حتى دخلها الإنجليز في ١٠ ديسمبر ١٩١٧.

ثم إن الخوارزمية اتجهوا لمساعدة الصالح أيوب ضد الصالح إسماعيل وحلفائه، ووقعت معركة غزة الثانية (قرب غزة في موقع اسمه هِرْبِيا) بين هذه القوى في ١٢ جمادى الأولى ٦٤٢هـ - ١٧ أكتوبر ١٢٤٤ وانتهت بهزيمة ساحقة للصالح إسماعيل والفرنج وقدِّر فيها عدد قتلى الفرنج بأكثر من ثلاثين ألفاً عدا ثمانمائة أسير سيقوا إلى مصر، وكانت هذه المعركة هي أخطر ضربة تلقاها الصليبيون بعد معركة حطين، وتعتبر من المعارك الفاصلة في تاريخ فلسطين. إذ ضعف الصليبيون بعدها ولم يتمكنوا من التوسع وسعوا إلى الاحتفاظ بما لديهم.

ثم قام الصالح أيوب بالسيطرة على القدس والخليل وبيت جبرين والأغوار ودمشق سنة ٦٤٢هـ - ١٢٤٥م، وعاقب الفرنج فسيطر على قلعة طبرية واقتحم عسقلان وبذلك انحسرت حدود مملكة الفرنج إلى أبواب يافا سنة ٦٤٤هـ - ١٢٤٧م. ثم داهمت مصر الحملة الصليبية السابعة بزعامة لويس التاسع ملك فرنسا ٦٤٦هـ - ١٢٤٩م والتي انتهت بالفشل وأسر لويس التاسع ثمَّ إطلاق سراحه وذهابه إلى عكا، ثم ما لبث الحكم الأيوبي لمصر أن انتهى بدخولها تحت حكم المماليك ٦٤٧هـ - ١٢٥٠م، وبدأت صفحة جديدة من صفحات الجهاد ضد المغول والصليبيين.

المماليك ومواجهة التتار

في القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي ظهر الخطر المغولي (التتري)

على بلاد المسلمين. وكان المغول قد توحدت قبائلهم تحت قيادة جنكيز خان، وبدأوا حملة كبرى للتوسع فسيطروا على منشوريا والصين وكوريا، واستطاعوا تحطيم جيش الدولة الخوارزمية المسلمة سنة ١٢٢١م الذي كان سداً منيعاً أمام توسعهم تجاه العالم الإسلامي، والذي كان قد حقق عليهم عدداً من الانتصارات الهامة.

وقد توفي جنكيز خان سنة ٦٢٤هـ – ١٢٢٧م ، ولكن المغول واصلوا زحفهم فاقتحموا آسيا الوسطى وروسيا وسيطروا على موسكو كما سيطروا على أوكرانيا وهاجموا بولندا وهزموا الجيوش الألمانية ، واجتاحوا المجر بعد أن سحقوا جيشها ، وتوغلوا في أوروبا . كما أخذوا يتوغلون في العالم الإسلامي فاستكملوا سيطرتهم على مناطق التركستان وأفغانستان والهند وفارس.

وكان المغول يدمرون الممالك التي أمامهم تدميراً دون شفقة أو رحمة وبشراسة رهيبة أرعبت العالم من قوتهم وسطوتهم، فصاروا ينتصرون لا بكفاءتهم وقوتهم فحسب وإنما بالحرب النفسية والرعب الذي بثوه في نفوس الناس، وقد استثمر المغول إلى أقصى حد حرب الصاعقة التي تعتمد على سرعة الحركة كما استثمروا حرب الأعصاب فنشروا الرعب والذعر من بطشهم في كل مكان.

وكانت بلاد المسلمين تعاني من التفكك والضعف مما سهل على المغول الزحف إلى بلادهم والقضاء بسهولة على ممالكهم. وبلغ من ضعف حكام المسلمين أن أحدهم – وكان يحكم إحدى المدن – أرسل صورته المرسومة على حذاء هدية لهولاكو قائد المغول حتى «يتشرف» هذا الحاكم بوضع هولاكو قدمه على صورته عندما يلبس الحذاء.

ثم اجتاح المغول العراق وحاصروا بغداد عاصمة الخلافة العباسية التي كانت تعاني من ضعف شديد كان من أسبابه تآمر الوزير ابن العلقمي مع المغول لإسقاط الخلافة وتسريحه معظم جيش الخلافة الذي أصبح عشرة آلاف بعد أن كان أكثر من مائة ألف. وقد سقطت بغداد في ٦٥٦هـ – ١٠ فبراير ١٢٥٨م، وقام المغول بمذبحة هائلة استمرت أربعين يوماً، وذكر ابن كثير أن عدد الضحايا بلغ

٨٠٠ ألف وقيل مليونان، وقتل الخليفة المستعصم بالله، وقيل إنه وضع في كيس وقتل رفساً.

وقام المغول باجتياح بلاد الجزيرة واستولوا على حران والرها وديار بكر، ثم جاوزوا الفرات ونزلوا حلب ٦٥٨هـ -يناير ١٢٦٠م. وأظهر حكام بني أيوب في الشام تخاذلاً كبيراً فأعلن الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب خضوعه للمغول ولكنهم دخلوا حلب وارتكبوا الفظائع حتى جرت دماء المسلمين في الأزقة، وبادر المنصور بن المظفر صاحب حماة بالفرار إلى مصر بحريمه وأبنائه تاركاً حماة وأهلها يلقون مصيرهم، ثم فر الناصر يوسف من دمشق إلى غزة بنية الهرب إلى مصر وترك دمشق خالية وفيها عامتها، وتبدد البيت الأيوبي في الشام بسرعة.

وصل المغول إلى دمشق فاستلموها بالأمان أول مارس ١٢٦٠م ثم غدروا بأهلها، وخلال فصل الربيع احتلوا نابلس والكرك وتقدموا إلى غزة دون مقاومة تذكر، وهكذا فقد تقاسم النفوذ في فلسطين مملكة عكا الصليبية والمغول التتار، وعادت فلسطين لتئن من جديد تحت سنابك خيل الكفار.

الصليبيون والتتار:

فرحت أوروبا بالهجوم التتري على بلاد الإسلام وعملت على التنسيق معهم بغية ضرب «العدو المشترك»، كما هدفوا إلى نشر المسيحية بين التتار أنفسهم، وقد نجحوا في بداية الأمر جزئياً في ذلك إذ اشتهر القائد التتري الذي اجتاح بلاد الإسلام (هولاكو) بميله للمسيحيين النسطوريين وكانت حاشيته تضم عدداً كبيراً منهم، وكانت زوجته مسيحية أيضاً، وقد لعبت هذه الزوجة دوراً خطيراً -تفخر فيه الكنيسة- في تجنيب أوروبا أهوال الغزو التتري وتوجيهه لبلاد المسلمين، بل إن قائد معركة عين جالوت التتري (كتبغا) كان مسيحياً، حتى إن أحد الأساقفة المسيحيين وصف حملة التتار بأنها «حملة صليبية بالمعنى الكامل لها، حملة نسطورية مسيحية» وإن آمال الغرب قد انعقدت على هولاكو

وقائده كتبغا ليحقق «القضاء على المسلمين». وقد بادر هاتون الأول ملك أرمينية وبوهيمونت السادس أمير طرابلس وأمراء الفرنج في صور وعكا وقبرص إلى عقد حلف مع المغول التتار يقوم على أساس القضاء على المسلمين في آسيا، وتسليم الفرنج بيت المقدس.

في تلك الفترة تولى السلطة في مصر - التي أخذ المماليك يحكمونها - السلطان المظفر قطز ١٧ ذي القعدة ٦٥٧هـ - ديسمبر ١٢٥٩م، وقد عرف قطز بتقواه وصلاحه وارتباطه العميق بالإسلام، وكان تلميذاً لأعظم العلماء في ذلك العصر العز بن عبد السلام، وعلى حد تعبير ابن كثير فقد كان قطز «شجاعاً بطلاً كثير الخير ناصحاً للإسلام وأهله، وكان الناس يحبونه ويدعون له كثيراً».

ولم يكد يمر عليه في الحكم سوى بضعة أشهر حتى واجه مشكلة الاجتياح التتري، وتلقى رسالة تهديد عنيفة من هولاكو - قبل مغادرته سوريا - تطلب منه الاستسلام جاء فيها «اتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم ... فنحن لا نرحم من بكى ولا نرق لمن شكا... أي أرض تؤويكم؟ وأي طريق تنجيكم؟ وأي بلاد تحميكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، الحصون عندنا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع»

ولكن قطز -القائد المسلم الذي لا يخشى إلا الله، والذي يعلم أن النصر بيد الله، وأنه متى استكمل العدة وبذل الأسباب وأحسن الصلة بالله والاستعانة به حقق الله له النصر - قرر إعلان الجهاد، ومواجهة الزحف الصليبي، وبعد أن قرأ الكتاب قبض على هؤلاء الرسل وأمر بإعدامهم توسيطاً (بأن يضرب الشخص في وسطه، فيقسم نصفين) وعلقت رؤوسهم على أحد أبواب القاهرة (باب زويلة)، وكان إعدامهم إعلاناً لا تراجع فيه عن العزم على القتال وتحدياً يفيض بمشاعر القوة والعزة في مواجهة الزحف التتري.

وقرر قطز أن يبادر هو بالهجوم والزحف على قوات التتار رفعاً للروح المعنوية للمسلمين، وتأكيداً على روح الجهاد الساعية إلى الشهادة في سبيل الله، وحفظاً لأرض الإسلام في مصر، وتحريراً لأرض الإسلام في بلاد الشام ومن ضمنها

فلسطين والمسجد الأقصى المبارك، وتخويفاً للتتار بأنه نوع جديد من الرجال لم يواجهوه من قبل، ولأن أنجح وسائل الدفاع الهجوم.

وفي رمضان ٦٥٨هـ - ٢٦ يوليو ١٢٦٠ اجتاز الجيش المسلم بقيادة قطز الحدود وحرر غزة حيث أقام بها يوماً واحداً ثم اتجه شمالاً باتجاه قوات التتار، حيث التقت القوتان الإسلامية والتترية عند «عين جالوت» شمال شرقي فلسطين.

معركة عين جالوت

ونشبت معركة عين جالوت إحدى أكبر المعارك الحاسمة في التاريخ، يوم الجمعة (٢٥ رمضان ٦٥٨هـ) الموافق (٦ سبتمبر ١٢٦٠م) وفي هذه المعركة توفرت للتتار عناصر النصر «علمياً ومنطقياً» إذ تفوق التتار على الجيش الإسلامي في عناصر:

* الكفاءة والخبرة الواسعة نتيجة الحروب الكثيرة التي خاضوها (قيادة وجنوداً).

* المعنويات العالية جداً لأنهم لم يهزموا من قبل.

* التفوق الكبير في العدة والعتاد والأعداد.

* الكفاءة العالية لسلاح الفرسان الذي تميز بكثرته وسرعة حركته وقدرته على تطبيق (حرب الصاعقة) التي كانت إحدى السمات البارزة للتتار.

* التفوق الإداري فله قواعد قريبة وطرق إمداداته أقصر.

* مواضع التتار في المعركة كانت أفضل من مواقع الجيش المسلم.

ورغم التفوق التتري الساحق، إلا أن النصر الساحق كان للمسلمين.

لقد تميز جيش قطز بأنه «جيش إسلامي» قام لنصرة الإسلام والدفاع عن أراضيه المقدسة، وشارك في هذا الجيش شيوخ مصر وعلماؤها وصالحوها، وانتشر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذا الجيش فخرج من مصر تائباً منيباً طاهراً يبغي نصر دين الله والتمكين له في الأرض. كما تميز الجيش الإسلامي بقيادة مؤمنة تتحلى «بإرادة القتال» بأقوى مظاهرها وهي من أهم عوامل النصر في أي معركة.

طلب قطز من الجيش الانتظار لما بعد صلاة الجمعة «لاتقاتلوهم حتى تزول

الشمس وتفيء الظلال وتهب الرياح ويدعو لنا الخطباء والناس في صلاتهم»، وهكذا بدأ القتال.

وفي أثناء المعركة قتلت زوجة قطز «جلنار» وهي تجاهد فأقبل عليها قطز وهي في الرمق الأخير وهو يقول واحبيبتاه فقالت له: لا تقل واحبيبتاه ولكن قل إسلاماه ثم صعدت روحها إلى الله بعد أن ذكرته بأن أمر الإسلام والجهاد في سبيل الله أهم من الحب والعلاقات الشخصية، وقام قطز منتفضاً وهو يردد إسلاماه... إسلاماه والجيش يرددها حتى تم النصر.

كما حدث في أثناء المعركة أن قتل فرس قطز فترجل أحد الأمراء ليعطيه فرسه فرفض حتى لا يحرمه من الجهاد، وحتى يأتيه المعنيون بالخيل بفرس جديدة، فقيل له لِمَ لَمْ تركب الفرس ولو أن بعض الأعداء رآك لقتلك وهلك الإسلام بسببك فقال: «أما أنا فكنت أروح إلى الجنة، وأما الإسلام فله رب لا يضيعه». وبعد النصر ترجل قطز عن فرسه ومرغ وجهه بالتراب وسجد لله شكراً على ما أولاه من نصر.

وبدأ المسلمون فوراً في مطاردة المغول، ودخل قطز دمشق بعد خمسة أيام من عين جالوت، وامتدت المطاردة إلى حلب فلما شعر المغول باقتراب المسلمين تركوا ما بأيديهم من أسرى المسلمين، وقاسوا من البلاء الكثير، وخلال شهر واحد كان المسلمون بقيادة المماليك قد استعادوا بلاد الشام من المغول والتتار.

وتعتبر هذه المعركة من المعارك الحاسمة في التاريخ إذ إنها أوقفت الزحف التتري الذي لم يكن يقف أمامه شيء، وكانت بداية لسلسلة من الهزائم المتوالية أعادت المغول إلى قواعدهم وحررت بلاد الإسلام منهم. ثم إن من استقر من المغول في بلاد الإسلام تحول إلى الإسلام فدخلوا في دين الله أفواجاً فكان ذلك نصراً جديداً للمسلمين.

المماليك والقضاء على الصليبيين:

رغم انحسار المد المغولي التتري عن فلسطين، وانتصار المسلمين في عين

جـالوت، إلا أن مملكة عكا الصليـبـيـة ظلـت تحـتـفظ بسـيطرتها على المنطقـة الساحلية الممتدة من يافا إلى عكا. وقد تولى سلاطين المماليك مهمة تحرير باقي أرض الإسراء وبلاد الشام حتى جلا آخر الصليبيين عنها بعد أكثر من ثلاثين عاماً من معركة عين جالوت.

وكان الظاهر بيبرس قد تولى خلافة السلطان قطز الذي لم يدم حكمه أكثر من سنة، وقد قام الظاهر بيبرس بدور كبير في محاربة الفرنج في بلاد الشام وتطهيرها منهم فكان في حركة دائبة مستمرة يقوم بالغارات على ممتلكاتهم. ولكنه كان يلجأ أحياناً رغم ذلك إلى توقيع المعاهدات معهم إذا أحسّ بحاجة إلى ذلك. وقد جرت العادة أن تكون مدتها عشر سنوات وعشرة شهور وعشرة أيام وعشر ساعات. وبعد أن فرغ من القضاء على المشكلات الداخلية في دولته توجّه إلى حرب الفرنج، ففي سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م خرج إلى فلسطين، ولما وصلت قواته إلى عكا خرج الفرنج إليه يطلبون تجديد الهدنة. ويتعهدون بإطلاق سراح أسرى المسلمين والمحافظة على العهود والمواثيق. ولكن بيبرس لم يكترث لمطالبهم وآثر مهاجمة مواقعهم المختلفة، ولا سيما عكا، ليعرف أماكن القوة والضعف فيهم إلى أن يحين الوقت لاستنقاذ البلدان والمواقع التي كانوا يحتلونها ولم تكن قوة الفرنجة بقادرة على اعتراض سبيله.

خرج الظاهر بيبرس إلى فلسطين ثانية سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م فاستولى على قيسارية المحصنة وهدم أسوارها وهاجم قسم من جيشه عكا وضرب حيفا. ثم سقطت أرسوف في يده في السنة نفسها.

وفي السنة التالية خرج إلى فلسطين مرة أخرى وحاصر صفد وفتحها وهدم أسوارها، ثم عاد إلى فلسطين في سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م فأرسل إليه الفرنجة يطلبون الهدنة. وكان يتبع سياسة مهادنة بعضهم دون الآخر حتى لا تتجمع قواهم في وجهه. وقد مكنته هذه السياسة من تحرير أنطاكية سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م. ويعدّ استيلاؤه عليها أكبر نصر حققه المسلمون على الفرنجة في الشام منذ تحرير صلاح الدين بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م. وقد وافق بيبرس بعد فتح أنطاكية

على عقد هدنة مع عكا مدتها عشر سنوات على أن تكون أعمال عكا مناصفة بين الطرفين ويستولي هو على المرتفعات المحيطة بصيدا.

تابع السلطان المنصور سيف الدين قلاوون مسيرة تحرير بلاد الشام من الفرنج بعد الظاهر بيبرس. ففي عهده حدث تحالف ثلاثي ضمّ التتار والصليبيين في الشام وسنقر الأشقر نائب دمشق الثائر. ولكن تحالفهم أخفق وبدأ قلاوون يشدّد الخناق على الفرنج فاحتل حصن المرقب سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م واستولى على اللاذقية سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م وعلى طرابلس سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م. وقد استفاد قلاوون من حالة الفرنج غير المستقرة في عكا خاصة وبلاد الشام عامة بسبب الصراعات والمنازعات على السلطة فقوي مركزه وتمت له تصفية الوجود الفرنجي في الشرق العربي. ولم يبق في هذه الفترة بيد الفرنج على الساحل الشامي سوى عكا وصور وصيدا وعتليت.

وجد قلاوون أن الوقت قد حان لتصفية الوجود الصليبي في فلسطين فانتهز حادثة مهاجمة الفرنج في عكا تجار المسلمين وقتلهم عدداً منهم فأعلن الجهاد وطلب القوات من جميع أنحاء مصر والشام. وأقام خارج القاهرة ينتظر وصول الإمدادات ولكنه مرض فجأة وتوفي في ذي القعدة ٦٨٩هـ/١٠ تشرين الثاني ١٢٩٠م فخلفه ابنه الأشرف صلاح الدين خليل. وقد حاول الفرنج في عكا الاستفادة من الوضع الجديد ومن التغيير في القيادة المملوكية فعرضوا على الأشرف خليل عقد هدنة يضع هو شروطها ولكنه رفض وأكمل الاستعداد وسار إلى عكا وحاصرها بمساعدة القوات الشامية وتمكّن من تحريرها في ١٧ جمادى الأولى ٦٩٠هـ/١٨ أيار ١٢٩١م بعد أن هرب ملكها هنري الثاني إلى قبرص. وبعد فتح عكا استولى الأشرف خليل على صيدا وصور وحيفا وعتليت وأمر بهدم تحصيناتها جميعاً. وهكذا سقطت آخر المعاقل الصليبية في الشرق العربي في أيدي المماليك وانتهى وجود الفرنجة في فلسطين والشام بعد قرنين من الزمان (٤٩٢ – ٦٩٠هـ/١٠٩٩ –١٢٩١م)، وبذلك عادت فلسطين كاملة إلى حظيرة الحكم الإسلامي الذي استمر حتى الاحتلال البريطاني لفلسطين.